

## عصر السلاطين

١ - نبذة عن ولادة المسلمين:

أ. الخلفاء الراشدون:

بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه اجتمع الصحابة في سقيفة بني ساعدة، وبعض الأنصار وتشاوروا في أمر الخلافة، فقال بعضهم منا أمير ومنكم أمير، فقد أراد الأنصار أن يكون الخليفة منهم، ولكن حسم الأمر كله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومد يده يبايع أبا بكر الصديق رضي الله عنه<sup>(١)</sup>، والحجة التي قبلت لتقديم أبو بكر الصديق للخلافة بأن (الصلاة عماد الدين فاختارنا لدينانا من رضىه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا<sup>(٢)</sup>).

قدم آخرون من الصحابة لخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عبد الله بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوة أنه رضىه رسول الله صلى الله عليه وسلم للأذان ولأن (الأذان مقدم على الإمامة حيث روى عن ابن عباس رضي الله عنه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علمني أو دلني على عمل يدخلني الجنة فقال كن مؤذناً، قال: لا أستطيع، قال: كن إماماً قال: لا أستطيع، فقال: فقم بإزاء الإمام. رواه البخاري<sup>(٣)</sup>).

رفض بالطبع بلال الحبشي، كيف بعد أن رفض أن يخلف الرسول الأنصار حيث قيل لهم: يجب أن يحكمهم قرشي، ورغم أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قرشي إلا أن الاختيار وقع على أبي بكر رضي الله عنه وتمت المبايعة الخاصة والعامة.

الخلفاء الراشدون على التوالي: أبو بكر الصديق وكانت مدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وتسعة أيام، وانتقل بعدها إلى جوار ربه فخلفه عمر بن الخطاب وحكم

١ - فتوح الشام ص ١٠٢ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص ٤٠.

٢ - إحياء علوم الدين المجلد الأول ص ٢٠٦.

٣ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج ١ ص ١٧٤.

عشر سنوات وستة أشهر قتل بعدها من قبل فيروز - أبو لؤلؤة - غلام المغيرة بن شعبه ، ثم استلم الخلافة عثمان بن عفان واستمر في الخلافة إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً . (ولما قتل أقام مطروحاً إلى الليل ، فحمله رجل على باب ليدفنه ، فتعرض له أناس ليمنعوه ، فوجد قبراً لغيره فدفنه ، صلى عليه جبير بن مطعم ، وقتل وهو ابن ثمانين سنة ، ولما دفنوه غيروا قبره) ثم خلفه علي بن أبي طالب وبقي في الحكم أربع سنين وتسعة أشهر وقتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي ودفن ليلاً بالكوفة وغيب قبره ، أما الحسن بن علي فخلع نفسه لمعاوية<sup>(١)</sup> .

تجد أن الخلفاء الراشدين الأربعة الثلاثة منهم انتهوا قتلاً ، أما أولهم فمات ميتة طبيعية رضي الله عنهم جميعاً فيكون المعدل الوسطي لفترة حكم الواحد منهم هو سبع سنين وأربعة أشهر .

ولاية مصر في عهد الخلفاء الراشدين بعد فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا خمسة وكلهم من العرب عزل ثلاثة منهم وقتل اثنان أحدهما قتل قبل استلامه الولاية بمصر فتكون مدة حكمهم منذ فتح مصر أربع سنين وخمسة أشهر وخمسة أيام فيكون الوسطي لكل والٍ سنتين وعشرة أشهر<sup>(٢)</sup> .

تجد لدى البعض قسوة فمثلاً آخر الولاية محمد بن أبي بكر الصديق قتله معاوية بن حديج ، ودون الرد على عمر ، وبعد أن قتله ألقاه في جيفة حمار ميت ثم أحرقه بالحمار ، وقيل قطع رأسه ، وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وهو أول رأس يطاف به<sup>(٣)</sup> .

## ب. الخلفاء الأمويون:

نقل مركز الخلافة إلى دمشق كما أصبحت الخلافة وراثية ملكية . بلغ عدد ملوك بني أمية ١٤ رجلاً وبلغت أيام حكمهم بعد حذف أيام عبد الله بن الزبير ٨٣

<sup>١</sup> - الجواهر الثمين ج ١ ص ٣٣ - ٤٠ - ٥٢ - ٥٤ - ٥٦ - ٥٧ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص ٤٣ إلى ٤٥ .

<sup>٢</sup> - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ٧٦ - ٧٩ - ٩٥ - ١٠٤ - ١٠٧ .

<sup>٣</sup> - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ١١٠ .

سنة وأربعة أشهر ومجموعها ألف شهر كاملة فيكون متوسط حكم أحدهم حوالي خمس سنوات وثلاثة أشهر وأسبوع، وفاة عشرة منهم طبيعية وثلاثة منهم قتلاً وواحد خلع نفسه<sup>(١)</sup>.

يذكر أن خلافة معاوية بن زيد بن معاوية دامت أربعين يوماً، وإبراهيم بن يزيد الناقص سبعين يوماً، وأخوه زيد بن الوليد خمسة أشهر وكانت مدة مروان بن الحكم تسعة أشهر وعشرة أيام<sup>(٢)</sup>.

أما ولاية مصر في خلافة الأمويين فبلغ عددهم ٢٢ والياً، اثنان منهم استلم الولاية مرتين، وواحد استلمها ثلاث مرات، أما عمرو بن العاص فكان والياً في عهد عمر بن الخطاب ثم عاد والياً في عهد معاوية بن أبي سفيان، وكل الولاة كانوا عرباً. واثنان عشر منهم عزل وواحد هرب وآخر استعفى وآخر خلع نفسه، باعتبار عمرو بن العاص ولي مصر للمرة الثانية عام ٣٨هـ، وآخر الولاة الأمويين بمصر هو عبد الله بن مروان بن موسى عام ١٣٠هـ، فيكون تقريباً وسطي حكم أحدهم حوالي ثلاث سنوات وشهر ويومين<sup>(٣)</sup>.

يذكر أنه بعد وفاة يزيد بن معاوية بأن الناس بايعت عبد الله بن الزبير في مكة وكان منهم أهل مصر، فبعث عبد الله بن الزبير والياً من قبله على مصر وهو عبد الرحمن بن جحدم سنة ٦٤هـ، حكم مدة تسعة أشهر فحاربه مروان بن الحكم ودخل الأخير مصر فعزل عبد الرحمن<sup>(٤)</sup>.

من أحداث هذا العصر وفي عام ٦١هـ خرج الحسين بن علي قاصداً الكوفة بعد أن بايعه الناس هناك (فتلقاه عسكر ابن زياد، فقتلوه بالطف (النجف) وقتلوا معه اثنين وسبعين رجلاً من أولاده وإخوته وبني عمه وأصحابه ومواليه، وسبوا حريمه، وبعث عبيد الله بن زياد السبي والحريم ورؤوس القتلى إلى عند يزيد بن معاوية،

١ - الجواهر الثمين ج ١ ص ٧٣ إلى ١٠٩.

٢ - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٢.

٣ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ٧٥ إلى ٣١٦.

٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ١٦٥.

وكان يزيد في دمشق، فردداهم إلى المدينة وحمل رأس الحسين على رمح، وهو أول حمل في الإسلام.

(وفي أيامه خرج عبد الله بن الزبير بمكة، وفي سنة ثلاث وستين كانت وقعة الحرة، أخرج أهل المدينة واليهيم عثمان - وهو ابن محمد بن أبي سفيان - فقتلوه، وأخرجوا جميع بني أمية فبعث يزيد الجنود مع مسلم بن عقبة المري، فقتل أكثر أهل المدينة من الصحابة جماعة... وأقاموا يذهبون المدينة ثلاثة أيام، وفيها سفك الدماء في حرم الله بمكة ورميت الكعبة بالنار في قتال ابن الزبير وفي سنة أربع وستين رميت الكعبة بالمنجنيق حتى انهدم جدارها، فبعد ذلك بأحد عشر يوماً مات يزيد<sup>(١)</sup>).

استلم الوليد بن عبد الملك عام ٨٦هـ، وهو الذي بنى جامع أمية في دمشق فكان نائب الوليد على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، ومما قيل عنه (أحصى من قتله الحجاج صبراً، سوى من قتله عساكره فكانوا مائة وعشرين ألفاً، ومات في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون امرأة، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد ولم يكن لسجنه سقف يسير الناس من الحر في الصيف أو المطر في الشتاء، وكان مرخماً بغير سقف، وله غير ذلك من أنواع العذاب)<sup>(٢)</sup>.

### ج . الخلفاء العباسيون:

نقل مركز الخلافة إلى بغداد، وكان أول الخلفاء العباسيين عبد الله بن محمد السفاح الذي تولى الحكم يوم ١٤ ربيع الآخر ١٣٢هـ وأخبرهم المستعصم بالله أنه قتل لولاكو فقتله بعد أيام في محرم - وقيل في صفر - ٦٥٦هـ - شباط ١٢٥٨م<sup>(٣)</sup>، وبلغ عدد الخلفاء العباسيين في بغداد تسعاً وثلاثين خليفة، فيكون متوسط حكم أحدهم تقريباً ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، مات منهم ١٨ ميتة ربه

<sup>١</sup> ... الجوهر النمين ج ١ ص ٧٨ - ٧٩.

<sup>٢</sup> - الجوهر النمين ج ١ ص ٨٨.

<sup>٣</sup> - مصر في دولة المماليك البحرية ص ١٧٩ والمماليك ص ٢٥٤ ولاية دمشق في عصر المماليك ص ٤٨ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص ١٨٢.

وقتل منهم ستة، أحدهم أسر وقتل سراً، وخلع عن الخلافة خمسة، أحدهم خلع نفسه وهرب وواحد خلع نفسه واعتقل حتى مات وآخر خلع نفسه طائعاً، واثنان خلعا ثم قتلا، وقيل سمم خمسة من الخلفاء، وسملت أعين ثلاثة منهم، وكان أول خليفة سملت عيناه هو محمد القاهر، وواحد من الخلفاء حبس وآخر هرب خوفاً على نفسه تاركاً الخلافة<sup>(١)</sup>.

### أمور حدثت زمن الخلافة العباسية:

أنفق الخليفة علي المكتفي بالله في (حرب القرامطة الأموال العظيمة، حتى أبادهم وأستأصلهم، وكانوا عرباً خرجوا على الحجاج ونهبوهم وقتلوهم بمكة، ورموهم في بئر زمزم، اقتلعوا الحجر الأسود وأخذوه إلى بلادهم<sup>(٢)</sup>).

في عام سبعة عشر وثلاثمائة للهجرة أقام الملعون أبو طاهر القرمطي في مكة إلى يوم التروية، فقتل الحجاج وهم محرمون حول البيت، وملاً بهم بئر زمزم، واقتلع الحجر الأسود وأخذه إلى هجر، ونهب البيت وأستاره وأبوابه، فيقال: إنه قتل بمكة قريباً من ثلاثين ألفاً، ولم يحج أحد في تلك السنة، ولا وقف بالجبل، ولم يبطل الحج في الإسلام غير تلك السنة<sup>(٣)</sup>، وأعيد الحجر الأسود إلى مكانه أيام الخليفة الفضل المطيع لله في عام ٣٢٩هـ، وبعد أن بقي لدى القرامطة اثنين وعشرين عاماً<sup>(٤)</sup>.

أسلم في عهد عبد الله القائم عام ٤٢٥هـ ثلاثون ألفاً من الترك، وكان كبيرهم أرسلان الياساسيري فانتشر ذكره وعزم على نهب دار الخلافة فاستجار الخليفة بالسلطان طغرلبيك بن ميكال بن سلجوق التركماني، فقدم للدفاع عن الخليفة وعند بغداد، فهرب أرسلان إلى الرحبة ومعه عدد كثير من الترك، فراسل صاحب مصر فأرسل الأخير له أموالاً لمقابلة الخليفة، فخرج السلطان طغرلبيك لمواجهة، لكن خالف الطريق أرسلان وعاد إلى بغداد لمحاربة الخليفة، فاستجار الخليفة بالأمير العربي قريش بن بدران العقيلي، فأجاره لكن قريش كان مع أرسلان،

١ - الجواهر النمين ج ١ ص ١١٣ - ١٢٣ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٠ العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٢.

٢ - الجواهر النمين ج ١ ص ١٦٣ - ١٦٤.

٣ - الجواهر النمين ج ١ ص ١٦٩.

٤ - الجواهر النمين ج ١ ص ١٨٥.

فأخرج الخليفة من قصره إلى خيمة ونهب قصره ثم توجهوا بالخليفة حيث حبس هناك، وخطب للخلفاء العبيديين في بغداد تسعة أشهر مدة غيبة الخليفة عن بغداد وإلى أن عاد السلطان طغرلبيك إلى بغداد وحررها، وأعاد الخلافة العباسية فيها وأرجع الخليفة إلى داره<sup>(١)</sup>.

ولادة مصر في عصر الخلافة العباسية وإلى بداية الدولة الفاطمية في مصر بلغ ٨٣ والياً استلم أحد عشر منهم ولاية مصر مرتين وواحد استلمها ثلاث مرات وواحد استلم ولاية مصر أربع مرات. أما عن عنصر الولاة فمن العرب كان ٥٤ والياً والباقي أجنب منهم ١٣ تركياً و١١ من منطقة خراسان واثان خزر جيان وواحد أرمني وآخر من سمرقند وآخر رومي. وكانت مدة الدعاء لبني العباس في مصر منذ ابتداء دولة بني العباس إلى أن قدم القائد جوهر المغربي وخطب باسم مولاه المعز معد العبيدي الفاطمي ٢٢٥ سنة<sup>(٢)</sup>، فيكون وسطي حكم ولاية مصر المعينين من قبل الخلفاء العباسيين سنتين وثمانية أشهر ونصف تقريباً، مات بأجله ١٦ والياً وقتل منهم ستة، كما قتل منهم في الحرب اثان، وطرد من الولاية ثلاثة، وهرب واحد وآخر استخلف غيره وترك الولاية، أما الباقيون فكلهم عزلوا من الولاية.

#### د. الدولة الأيوبية:

كان صلاح الدين الأيوبي وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي من عام ٥٦٤هـ وفي نهاية ٥٦٧هـ خطب صلاح الدين جمعيتين لبني العباس وأبطل اسم الفاطميين، مات بعدها العاضد، فتسلم صلاح الدين القصر بما فيه، واعتقل أقارب العاضد، ومنعوا من النساء لئلا يتناسلوا. وبعد أن مات نور الدين الشهيد بدمشق سار صلاح الدين إليها، وملك دمشق وبلاد الشام بعد أن سبق ملك مصر. كان لصلاح الدين سبعة عشر ولداً ذكوراً وبنت واحدة، وعند موته قسم البلاد لأولاده وأعطى العزيز عثمان مصر<sup>(٣)</sup>.

١ - الجوهر الثمين ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٤.

٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ٢٥.

٣ - الجوهر الثمين ج ٢ ص ١٣ - ١٦ - ١٩.

كان الحكم عند الأيوبيين ملكياً والذي انتهى نهائياً بخلع الأشرف موسى وسجنه حتى مماته ، ويكون وسطي حكم الفرد منهم تسع سنوات وعشرة أشهر وخمسة أيام تقريباً. خمسة من الملوك الأيوبيين توفوا وثلاثة خلعوا وواحد قتل<sup>(١)</sup>.

أما عما قيل بأن الصالح أيوب أبعد الأكراد والعرب واستقدم عناصر من غيرهم، وأسكنهم في قلعة الروضة على نهر النيل، فكان السبب كما ذكره المقريزي حين مسك الصالح أيوب وسجن في الليلة التي زال عنه ملكه فيها، تفرق عنه الأكراد وغيرهم من العساكر حتى لم يثبت معه سوى مماليكه، رعى لهم ذلك فلما استولى على ملك مصر جلب العديد منهم، فصاروا بطانته المحيطين به<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - عهد السلاطين:

### أ. جنسية السلاطين:

هناك من يقسم عصر السلاطين إلى دولتين سميت لدى البعض بالدولة البحرية<sup>(٣)</sup>، لكونهم سكنوا في قلعة الروضة، وتسمى قطعة الجزيرة<sup>(٤)</sup> على النيل<sup>(٥)</sup>، وهناك رأي آخر رأى فيه نوعاً من التجديد والرغبة في الخروج على المألوف. وقيل: إن التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر، ومن ثم سموا بالبحرية<sup>(٦)</sup>، والدولة الثانية البرجية أو الشركسية<sup>(٧)</sup>. لكونهم سكنوا في قلعة الجبل ومنهم من قال اسم البرجية نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلوا بها<sup>(٨)</sup>، ولكن

<sup>١</sup> - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ص ٣ - ٣٦٤ نزعة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص ٥٢ - ٦١ - ٧١.

<sup>٢</sup> - نزعة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص ٦٢.

<sup>٣</sup> - السكة الإسلامية في مصر دولة المماليك الجركسية ص ٤.

<sup>٤</sup> - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ص ٣٢٠.

<sup>٥</sup> - مصر في دولة المماليك البحرية ص ١٤ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص ١٦٧.

<sup>٦</sup> - العصر المماليكي في مصر والشام ص ١١.

<sup>٧</sup> - السكة الإسلامية في مصر دولة المماليك الجركسية ص ٤ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ٣٣٠.

مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص ١٦٧.

<sup>٨</sup> - قيام دولة المماليك الثانية ص ١٢ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٢٥٤ المماليك ص ٧٥ مصر والشراسة ص ٣٥ - ٥٢.

الشيخ زاهد الكوثري يرى أن السلطان قلاوون سماهم بالبرجية باعتباره شركسي من قبيلة (برج) فنسبهم إليه<sup>(١)</sup> أما تسمية الدولة الأولى بالتركية والثانية بالشركسية ففيها مجانية واضحة للحقيقة إذ توجد في الدولة الأولى شراكسة وغيرهم في الدولة الثانية شراكسة وغيرهم أيضاً، وأوضح بأن الشركس تعني ويقصد بها سكان ما بين بحري قزوين والبحر الأسود في القفقاس الشمالي<sup>(٢)</sup> وسلطين الشراكسة على الأرجح وحسب استلامهم الحكم بعد حذف كلمة ملك أو سلطان هم:

- ١ - عصمة الدين شجرة الدر بنت عبد الله، أم خليل.
- ٢ - الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي والبنقداري الصالحي أبو الفتح.
- ٣ - السعيد ناصر الدين محمد ويسمى بركة خان أبو السعد بن الظاهر بيبرس.
- ٤ - العادل بدر الدين سلامش أبو الفتح بيبرس.
- ٥ - المنصور أبو المعالي سيف الدين قلاوون الصالحي النجمي الألفي، ويكتبها البعض قلاون وتكتب أيضاً قلاؤن<sup>(٣)</sup>.
- ٦ - الأشرف خليل بن قلاوون.
- ٧ - الناصر محمد أبو المعالي بن قلاوون.
- ٨ - المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير أو الجاشنكير المنصوري.
- ٩ - المنصور سيف الدين أبو بكر بن محمد بن الناصر محمد بن قلاوون.
- ١٠ - الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد.
- ١١ - الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد.
- ١٢ - الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد.
- ١٣ - الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد.
- ١٤ - المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد.

<sup>١</sup> - الوطن في أدب الشراكسة ص ٣٥.

<sup>٢</sup> - قفقاسيا ص ٩.

<sup>٣</sup> - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٣٠٠.

- ١٥ - الناصر بدر الدين حسن بن الناصر محمد.
- ١٦ - الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد.
- ١٧ - المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي بن محمد قلاوون.
- ١٨ - الأشرف زين الدين شعبان أبو الجود بن حسين بن محمد قلاوون.
- ١٩ - المنصور علاء الدين أبو الفتح بن شعبان بن حسين بن محمد قلاوون.
- ٢٠ - الصالح زين الدين حاجي ويقال له أمير حاج أبو الجود بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون.
- ٢١ - الظاهر برقوق واسمه السابق الطنبغا ، فسماه أستاذة يلبغا الكبير برقوق أبو سعيد بن أنص اليلبغاوي الشرکسي.
- ٢٢ - الناصر زين الدين فرج أبو السعادات بن برقوق بن أنص ، وكان سماه أبوه بلغاق ثم سماه فرجاً.
- ٢٣ - المنصور عز الدين أبو العز بن برقوق بن أنص.
- ٢٤ - المؤيد سيف الدين شيخ المحمودي أبو النصر الظاهري الشرکسي.
- ٢٥ - المظفر شهاب الدين أحمد أبو العز بن المؤيد شيخ.
- ٢٦ - الظاهر سيف الدين ططر أبو الفتح الظاهري الشرکسي.
- ٢٧ - الصالح ناصر محمد أبو السعادات بن ططر.
- ٢٨ - الأشرف سيف الدين برسباي أبو النصر الدقماقي الظاهري الشرکسي.
- ٢٩ - العزيز جمال الدين يوسف أبو المحاسن بن برسباي.
- ٣٠ - الظاهر سيف الدين جقمق أبو سعيد العلائي الظاهري الشرکسي.
- ٣١ - المنصور فخر الدين عثمان أبو السعادات بن جقمق.
- ٣٢ - الأشرف سيف الدين بن إينال أبو العلائي الناصري الشرکسي.
- ٣٣ - المؤيد شهاب الدين أحمد أبو الفتح بن إينال.
- ٣٤ - الظاهر سيف الدين بلباي أبو سعيد الإينالي المؤيد العلائي الشرکسي.
- ٣٥ - الأشرف سيف الدين قايتباي أبو النصر المحمودي الظاهري الشرکسي.
- ٣٦ - الناصر ناصر الدين محمد أبو السعادات بن محمد بن قايتباي..

٣٧ - الظاهر سيف الدين قانصوه أبو سعيد المحمودي الأشرفي القايتباي  
الشركسي

٣٨ - الأشرف سيف الدين جان بلاط وتكتب أيضاً جانبلاط أبو النصر الأشرفي  
الشركسي المعروف بالناظر.

٣٩ - العادل سيف الدين طومان باي أبو النصر الأشرفي الشركسي.

٤٠ - الأشرف سيف الدين قانصوه الغوري أبو النصر الأشرفي الشركسي  
المعروف بالغوري نسبة إلى طبقة الغور إحدى الطبقات التي كانت في مصر لتعني  
المؤدبين وقيل تعني الأمير المبارك.

٤١ - الأشرف طومان باي أخو الغوري.

آخر السلاطين كان طومان باي حيث قاتل العثمانيين في مصر مدة وقيل: (رأى  
طومان باي في نومه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا طومان أنت ضيفنا بعد ثلاثة  
أيام. فخلع آلة القتال وذهب إلى السلطان طائعاً مختاراً فشنقه<sup>(١)</sup>، وأبقاه في باب زويلة  
مشنوقاً ثلاثة أيام ثم دفن بمدفن الغوري المشهور، وبموت طومان باي انقضت دولة  
الجراكسة في مصر وعادت إلى نيابة كما كانت<sup>(٢)</sup>).

نذكر من أحداث السلاطين المذكورين:

تمت الموافقة على أن تصبح شجرة الدر ملكة<sup>(٣)</sup>، وهي أول ملكة في الإسلام  
وتم ذلك قبل ثماني سنوات من سقوط الخلافة العباسية في بغداد<sup>(٤)</sup>، وذلك لما  
يعلمون من أنها في زمن زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب هي التي تدير أمر  
المملكة وقضي حوائج الناس وتعلم على المناشير. أي المراسيم. والتواقيع<sup>(٥)</sup>، وكان  
الملك الصالح يعتمد عليها في أموره وأعماله، كما ساست الناس على أحسن وجه

١ - ولادة دمشق في عصر المماليك ص ١١ من الموجز في تاريخ سورية ج ٢ ص ١٣٣.

٢ - فتوح الشام ج ٢ ص ٦٣ - ٦٤ الوطن في أدب الشراكسة ص ١٥٥.

٣ - المماليك ص ٤٦.

٤ - محاضرات في الأدب الملوكي والعثماني ص ١٥.

٥ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٤٤ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ص ٣٣٣ مصر  
والشام في عصر الأمويين والمماليك ص ١٧٢.

وجودة تدبير، لحسن سيرتها وغزير عقلها، ودعي لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة العباسي . كما كان في زمن عصر السلاطين . بقولهم: (واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمت الدنيا والدين أم خليل المستعصم صاحبة السلطان الملك الصالح)<sup>(١)</sup>، ونقش اسمها على الدراهم والدنانير، ولم يل مصر في الإسلام امرأة فأقامت الملكة ثلاثة أشهر وعزلت نفسها<sup>(٢)</sup>، وقيل ثمانين يوماً<sup>(٣)</sup>.

- بعد انقضاء الخلافة العباسية في بغداد أحيأها مرة ثانية في مصر السلطان الظاهر بيبرس فكان أول خليفة في مصر المستنصر بعد أن وصل إلى مصر عام تسعة وخمسين وسبعمائة بعد أن تم إثبات نسبته من القضاة فبايعه الخلافة وأجرى عليه نفقة، ولم يكن له من الأمر شيء سوى اسم الخليفة، ووراثة اللقب لأولاده من بعده، واستمر الأمر وكان آخر خليفة عباسي بل آخر خليفة للمسلمين هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب الملقب بالمتوكل، ولما دخلت القوات العثمانية على بلاد الشام ثم مصر أخذه معه السلطان سليم إلى تركيا الحالية، وبعد أن توفى السلطان المذكور عاد الخليفة إلى مصر واستمر بها مقيماً إلى أن توفى في عام خمسين وتسعمائة وبموته انقطعت الخلافة إلى الآن<sup>(٤)</sup>.

- قيل عن نهاية السلطان طومان باي غير ما ذكر سابقاً بأنه بعد أن دخلت قوات السلطان سليم مصر لم يتوقف عن القتال والدفاع عن مصر، ولكن ما دام الصلح أصلح لصون المسلمين، أرسل السلطان طومان باي إلى سليم كتاباً مع قاضي البهنسا يوضح فيه فيما إذا كان يريد المفاوضة على أن تكون الخطبة والسكة باسمه ويبقى هو نائباً، ويحمل إليه خراج مصر على أن يرحل عن مصر مع عساكره إلى الصالحية صوناً لدماء المسلمين، وأوضح له (إذا كنت لا تريد ذلك لاقني في الجيزة، ويعطي الله النصر لمن يشاء) ثم ذكر ما معه من قواد وأمرأ وقوات و (رأى

<sup>١</sup> - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٣٧٣ - ٣٧٤ العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٨ مصر في دولة المماليك البحرية ص ٢٠ الملك المظفر قطز ص ٥ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص ١٧٢.

<sup>٢</sup> - فنوح الشام ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧٢ كتاب خطط الشام ج ٢ ص ١٠٧ من الموجز في تاريخ سورية ج ٢ ص ٦٠.

<sup>٣</sup> - البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٩ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص ١٧٥.

<sup>٤</sup> - فنوح الشام ج ٢ ص ١٨٥ - ١٩٠.

السلطان سليم ألا يرفض الدخول في الصلح بحسب القواعد التي ذكرها طومان باي، وكتب صورة معاهدة إليه، ووقع عليها على أن يقوم الخليفة المتوكل والقضاة بحملها إلى طومان باي، ولكن الخليفة اعتذر وأتاب عنه دواذره الخاص برد بك، فخرج الوفد ومعه مندوب عثماني على أنه حدث عند وصول الوفد إلى البهنسا أن هاجمه بعض الشراكسة وقتلوا المندوب العثماني وهرب برد بك. وربما اعتذار الخليفة من أحد أسباب عدم الصلح وربما ظن الخليفة في حينه عندما أعطاه سليم صلاحية صاحب الحل والعقد سيستمر بذلك. ثم نشبت الحروب من جديد قرب الجيزة هزم العثمانيون أولاً بفرقة، ولكن المعركة انتهت بنصر العثمانيين فاقتضى السلطان طومان باي لثالث مرة خلال المعارك استعداداً لحرب أخرى على ما يبدو، وهذه المرة توجه السلطان طومان إلى الغربية لعند حسن بن مرعي وابن عمه شكري شيوخ غرب محارب، حيث كان ولاهم طومان باي على عربهم، وبعد أن أخرج حسن من الحبس المؤبد زمن المرحوم السلطان الغوري فالتقى بهم وأخذ العهود والمواثيق والأيمان المغلظة<sup>(١)</sup>، بأن يكونا معه ظاهراً وباطناً وبالقلب، وأن يكونوا هم على قلب رجل واحد. وشرح السلطان طومان باي بأن العدو في أثره، وأحضر مصحفاً وحلف حسن وابن عمه على القرآن ألا يخونا ولا يغدرا به ولا يدلا عليه بشي ولا لسبب من الأسباب، وحلفا على المصحف سبع مرات فاطمأن طومان . (وبعد أن اطمأن حسن بن مرعي على استقرار طومان باي ومن معه، خرج عنهم ليستطلع الأخبار، وقد حدثته نفسه بالخيانة، ويقال إن مجادلة حادة وقعت بينه وبين أمه في أمر الخيانة، وحذرتة الأم من هذا العمل، وأخذت تذكره بما للسلطان طومان باي عليه من أياذ بيضاء، وجهدت في نصحه فلم ينتصح، إنه كان يطمع في المكافأة وشجعه شكري ابن عمه بقوله: هل عاقل يبيع عاجله بأجله، لا تمل إلى الكفة الخاسرة فيحصل لك الخسران)، واستقر عزم حسن بن مرعي على الخيانة وأحاط

<sup>١</sup> - صور ومظام من عصر المماليك ص ٢١.

بعريانه الضيف. وأرسل إلى السلطان سليم بالخبر<sup>(١)</sup>، وبالطبع أمسك السلطان طومان وعاتبه سليم بمقتله رسله الذين أرسلهم للمفاوضة في الصلح لكن طومان دافع عن نفسه بشجاعة وهيبة ووقار، ونزاهة نفس، وأعرب بأنه لا بد من الدفاع من شرفه العسكري وشرف استقلال بلاده، وأعجب السلطان به وقال له: لو أطلعتني أول مرة وجعلت السكة والخطبة باسمي لرجعت من حلب ولا دست أرضك. وكان جواب السلطان طومان له: (الأنفس التي تربت في العز لا تقبل الذل،... هل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا، وليس في عسكريك من يقايسني في حومة الميدان) فقرر سليم أن يضعه في الحجر، ولكن الأعداء أوغروا صدر سليم فأمر بشنقه يوم الاثنين ١٩ ربيع الأول ٩٢٣هـ الموافق نيسان ١٥٢٧م<sup>(٢)</sup>، وسار طومان بحراسة ٤٠٠ جندي إلى أن وصل باب زويلة، ولم يهزم ولم يظهر عليه أي خوف أو اضطراب، وبقي رافع الرأس ويسلم على الناس طوال الطريق، وحينما أرخى له المشاعلي حبلاً هنا دعا السلطان طومان باي الناس الذين اجتمعوا حوله أن يقرؤوا له الفاتحة ثلاث مرات ويسط يده إلى السماء وقرأ الفاتحة عن نفسه في صوت مسموع وقرأ الناس معه، والتفت إلى المشاعلي وقال: اعمل شغلك، ولكن جبل المشنقة انقطع، وأعيد وضع الحبل حول رقبة السلطان طومان باي وسقط ميتاً المرة الثانية، وصرخ الناس صرخة مدوية تفيض حزناً وأسفاً، ودفن بعد ثلاثة أيام في حوش المدرسة التي بناها السلطان الغوري رحمهما الله<sup>(٣)</sup>.

اغلب المصادر تؤكد بأن السلطان المرحوم طومان باي تم شنقه كما ذكرنا ولكن هناك من يقول: إنه أعدم رمياً بالرصاص في ١٩ ربيع الأول ٩٢٣هـ<sup>(٤)</sup>.

١ - العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٠ مصر والشراسة ص ١٠٥ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص ٢٨١.

٢ - مصر والشراسة ص ١٠٦.

٣ - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص ١٩٢ - ١٩٨ طومان باي ص ٧٦ إلى ١٧٨ العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٠٥ صور ومظالم من عصر المماليك ص ٣٢ - ٣٣ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص ٢٨٢.

٤ - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص ١٨٢ - ١٨٣.

أعود إلى باقي السلاطين في الدولتين الأولى والثانية مع ذكر نسبه على الأرجح وحسب استلامهم الحكم:

- ١ - التركماني المعز أييك الصالحي.
  - ٢ - التركماني المنصور علي بن أييك.
  - ٣ - الخوارزمي المعز قطز المعزي.
  - ٤ - التتاري العادل كتبغا المنصوري.
  - ٥ - التركي المنصور لاجين المنصوري وقيل أصله من الشركس<sup>(١)</sup>.
  - ٦ - العربي الخليفة المستعين بالله العباسي بن محمد بن أبي بكر بن أحمد.
  - ٧ - الرومي الظاهر خشقدم الناصري المؤيدي.
  - ٨ - الرومي الظاهر تمر بغا الظاهري.
- ب. نسب السلاطين:

نعت ونسب بعض السلاطين الشراكسة بالأتراك أو بأسماء أخرى لا بد من تبيان بعض الأمور حول ذلك فقد كان للملك الصالح ثلاثة قواد ذوي صولة وجولة، وهم أييك التركماني وقطز الخوارزمي وبيبرس الشركسي<sup>(٢)</sup>، وكان خلف بيبرس فارس الدين أقطاي والأمير سيف الدين قلاوون<sup>(٣)</sup>، وكان كل من بيبرس والأميرين يدعمون شجرة الدر لكونها من الشراكسة مثلهم، ومما يدل على ذلك وحدتهم واختلافهم مع أييك وقطز، وكان لابد من ظهور خلاف بعد موت الملك الصالح فسلطنت شجرة الدر لحسم أي خلاف بين القادة، ولكن لعدم قبول المسلمين بسلطانة عليهم، واعتراض الكثيرين ومنهم الخليفة العباسي<sup>(٤)</sup>، ولكي لا يقع أي خلاف بالدولة الفتية تم زواج شجرة الدر بالمعز أييك. (ولما جرى في المنصورة ما جرى أتفق الناس على أتابكية الأمير عز الدين التركماني الصالحي وأن يكون الرأي

<sup>١</sup> - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص ٤٧ الممالك ص ٧٠.

<sup>٢</sup> - الوطن في أدب الشراكسة ص ٤٤.

<sup>٣</sup> - الوطن في أدب الشراكسة ص ٤٤.

<sup>٤</sup> - العصر المماليكي في مصر والبلاد ص ٢٠ مصر في دولة المماليك البحرية ص ٢٢ الملك المظفر قطز ص ٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٩.

والتدبير لوالدة خليل - أي شجرة الدر - ولد الملك الصالح ، فدخلت الأمير عز الدين الطمع في المملكة) ثم صار يقدم جماعة خلف جماعة ولا يجسر إلا على إظهار التبعية مع أن الأمير فارس الدين أقطاي كان مخلصاً لأبيك ويمنع عنه كل معترض ومع ذلك كان أبيك يضم الحقد لأقطاي وبيبرس وزملائهما ، وتم الاتفاق بين المعز والأمير سيف الدين قطز وجماعة من مماليكهما على قتل فارس الدين<sup>(١)</sup> ، وحينما طلب المعز الحضور من أقطاي ذهب معه بيبرس فلم يجسر أحد عليهما ، ولكن المكائد كانت مستمرة وحبائل المصائد تنصب ، فبعد أن خرج بيبرس وأقطاي أوضح بيبرس لرفيقه أن يكون حذراً ، وحينما أرسل أبيك لأقطاي مرة أخرى بحجة استشارته ، ومع تحذير بيبرس أبى إلا الرجوع فعاد إلى القاعة ودخل الأمير فارس الدين إلى قاعة العمدة بالقلعة ، وقام منها إلى قاعة أخرى ، وإذا بالأمير سيف الدين قطز وقد ضربه بالسيف وهو غافل<sup>(٢)</sup> ، وأعانه بقية الجماعة ، وقتلوه غدرًا في دهليز ضيق) وكان أن اقترح بيبرس على شجرة الدر وأقطاي وقلالون الرحيل ، ولكن كما قال تعالى : **( لكل أجل كتاب )** وبعد مقتل أقطاي ، فما كان من بيبرس إلا الخروج مع من وافقه إلى الشام ، وبعد أن رفض أغلب خوشداشيتة حيث انقسموا بآرائهم فمن قائل وخائف على أهله وأولاده وإقطاعه وملكه ومن يقول : (مالي ذنب أهرب منه) ولكن أبيك لم يتركهم فقتل وشرّد الكثير منهم.

حينما وصل بيبرس مع رفاقه ومنهم قلالون إلى الشام<sup>(٣)</sup> ، (تلقاه الملك الناصر صلاح الدين ابن الملك العزيز صاحب دمشق وحلب فأكرمه وأكرم من وصل معه

<sup>١</sup> - الملك المظفر قطز ص ١٠ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٩ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٤٦٧ تاريخ الملك الظاهر ص ٢٦٨ المماليك ص ٤٦ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ١٨ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ٩٧ مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص ١٧٨ - ٢٠٨.

<sup>٢</sup> - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٧٩ البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٠١ العصر المملوكي في مصر والشام ص ٤٥ الملك المظفر قطز ص ٦٥.

<sup>٣</sup> - خليل بن قلالون ص ٦ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ١٨ مدن الشام في مصر عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٨٢.

من الأمراء وخوشداشيته وتسلسل الهاربون من البحرية إلى السلطان) أي بيبرس، وهذا يؤكد أن البحرية كان بينهم شراكة وعددهم ليس بقليل.

استمرت الدسائس وراسل أليك الملك الناصر وخوفه من بيبرس ورفاقه ففترت همة الملك الناصر تجاه بيبرس، وتغيرت عهود الملك الناصر وبما أن نابلس كانت إقطاعاً لبيبرس سابقاً فقد تكلم مع الملك الصالح بالخروج إليها مع جماعته (فأخذهم وتوجه إلى الكرك وبصحبته الأمير سيف الدين قلاوون الألفي وعز الدين أوغان الركني وغيرهما) فاستقر بيبرس في الكرك<sup>(١)</sup>.

قتلت شجرة الدر أليك<sup>(٢)</sup> فقتلت هي الأخرى بعد أن سحقت كل جواهرها وذهبها لكي لا تقع في يد عدوها<sup>(٣)</sup>.

بعد موت أليك ووصول قطز الحكم كانت معركة عين جالوت، فراسل قطز عدوه السابق بيبرس للاتفاق معه على أن يقاتلا معاً عدو الإسلام، وقيل عكس ذلك بأن أحد أمراء دمشق التابع للأيوبيين واسمه زين الدين الحافظي أشار بالاستسلام لهولاكو والدخول في طاعته، عندما سمع زحف التتار في حلب، ولكن الأمير بيبرس لم يعجبه ذلك القول، فقام وصنع الأمير الحافظي على وجهه قائلاً له: (أنتم سبب هلاك المسلمين) ثم سار بيبرس ومعه الأمراء البحرية إلى غزة ومن هناك أرسل بيبرس إلى السلطان قطز يطلب توحيد الكلمة لمواجهة خطر التتار<sup>(٤)</sup>، فاتفق بيبرس وقطز على القتال معاً لمصلحة البلد، وبعد الانتصار في المعركة لا حق بيبرس التتار إلى ما بعد حلب<sup>(٥)</sup>، واصطحب قطز معه بيبرس متوجهين إلى مصر مع أنه قيل بأن قطز

<sup>١</sup> - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٥١ إلى ٥٦.

<sup>٢</sup> - ولاية دمشق في عصر المماليك ص ٥٩ مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص ١٧٩.

<sup>٣</sup> - العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٧ الملك المظفر قطز ص ٢٢ - ٦٣ مصر والشراكة ص ٥١ من الموجز في تاريخ سورية ج ٢ ص ٦١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ص ٣٧٨.

<sup>٤</sup> - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٢ العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٧ مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص ١٨٤.

<sup>٥</sup> - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٠ - ٢٢١ ولاية دمشق في عصر المماليك ص ٥٣ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ٨٢.

كان قد وعد بيبرس بولاية حلب، ولكن على ما يبدو فقد غير قملز رأيه ولكن لم يصل مصر وإنما الذي دخلها وهي محتفلة بالنصر بيبرس الذي أصبح ملكاً وسلطاناً على مصر وبلاد الشام<sup>(١)</sup>.

اختلفت الرواة في تحديد جنسية بيبرس فمنهم من قال بأنه من قبجاق<sup>(٢)</sup>، وقيل من برج أغلي<sup>(٣)</sup>. أما مرتفعات بلاد القبجاق فهي بين البحر الأسود وقزوين<sup>(٤)</sup>، فقد ذكر أنه من القبجاق وقال البعض من الترك، وقال آخرون أنه شركسي من القوقاز<sup>(٥)</sup>.

كتب البعض بأن قلاوون تركي، وقيل من القبجاق<sup>(٦)</sup>، وهناك كتابات تقول بأنه شركسي، كما جاء في تعليق للشيخ محمد زاهد الكوثري على أحد فصول كتابه (المزارات الإسلامية والآثار العربية) واعتبر قلاوون من قبيلة برج الشركسية<sup>(٧)</sup>، وهناك من قال قلاوون من جنس القبجاق ومن قبيلة برج أغلي<sup>(٨)</sup>، الجدير بالذكر أن السلطان قلاوون بعد تسلطه استقدم العديد من الشراكسة، فقد أراد له طائفة منهم (تختصه بولائها ويرتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين، تختلف في أصولها عن الطوائف الأخرى القائمة)<sup>(٩)</sup>، فهو وزميله بيبرس أكد العديد بأنهما شركسيان<sup>(١٠)</sup>، وقيل بأنه من القبجاق.

١ - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٢.

٢ - المالبيك ص ٥٦ قفاسيا ص ٩.

٣ - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد.

٤ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٢٧.

٥ - مصر والشراكسة ص ٥٢.

٦ - المالبيك ص ٥٦ قفاسيا ص ٩ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ٩٤.

٧ - الوطن في أدب الشراكسة ص ٣٥ مصر والشراكسة ص ٥٢.

٨ - خليل بن قلاوون ص ٦ - ٩.

٩ - العصر المماليكي في مصر والبنام ص ١٤٢.

١٠ - مجلة النشرة الثقافية العدد ٤ آذار ١٩٩٠ ص ١٦.

يسمى سكان شمال القفقاس القبايق، كما سمو الجبل بجبل القبيج<sup>(١)</sup>، ويقال عنه جبل قاف<sup>(٢)</sup>، أما عن كلمة قبيج فهي كلمة شركسية معربة عن كيجك بمعنى النازح من سفح الجبل ( وقال شيخ الرينة أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الدمشقي في كتابه (نخبة الدهر) :وأما القبيج فمساكنهم في جبال وغياض من وراء دربند وشيروان مما يلي بحر الروس، وكذلك سمي الناس بتلك الصحارى الواسعة في شمال الجبل وبين بحر الخزر ولأزق على نهري وولجا ودون (دمشت قبيج) أو صحراء الخزر<sup>(٣)</sup>.

يقال (لجبل القفقاس جبل القبيق كما ذكره أبو الفداء في تقديم البلدان، وميدان القبيق<sup>(٤)</sup>، المعروف في مصر أحدثه الظاهر بيبرس، لتدريب الجيش المطلوب من القبيق على الرمي، وسماه بهذا الاسم ليكون الجيش على ذكر منشئهم الأصلي، ومنشأ الأبطال عند تدريبهم على الرمي حتى ينشؤوا أبطالاً بكل معنى الكلمة لكي يتناسب جيشهم من حيث جبل القبيق في البطولة)<sup>(٥)</sup>. (بل توسعوا وأطلقوا لفظ (قبيق) على كل أمير من القفقاس له جنود مدربة على الرمي. وقال صاحب كشف الظنون في جهانها (دليل العالم): للجركس أحد عشر قبقاً. والمراد بالقبيق الأمير. فتمان، وتمرك، وجفاكا وهم حرييون كفار، وجانا كبير وجانا صغير، وبوزه دوق، وحاتوقاي، وبولتقاي، وبسنني، وقبرطاي، وهم مسلمون)<sup>(٦)</sup>، وهذه الأفخاذ والقبايل شركسية أصلية ما زالت موجودة إلى هذه الأيام وتوجد العديد من تلك القبائل في البلاد العربية.

<sup>١</sup> - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص ٢٤٩ - ٣٣٩ شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص ١٠.

<sup>٢</sup> - من الموجز في تاريخ سورية ج ١ ص ٢٧.

<sup>٣</sup> - تاريخ الفوقاز ص ٦٦ شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص ١٠.

<sup>٤</sup> - المطبخ السلطاني ص ٦٥ - ٦٦ تاريخ الملك الظاهر ص ٢٠ الممالك ص ١٠٨ إلى ١١٠.

<sup>٥</sup> - تاريخ الفوقاز ص ٦٥ نظم دولة السلاطين ورسومهم في مصر ج ٢ ص ١٤٢ - ١٤٣ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٤٢٤ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٣١.

<sup>٦</sup> - تاريخ الفوقاز ص ٢٥٩.

حينما كان يود أحدهم الإقدام على الزواج لم يكن يقبل بالزواج إلا من جنسه، فمثلاً تزوج محمد (بركة خان) ابن السلطان بيبرس من بنت قلاوون<sup>(١)</sup>، كما كان قلاوون نفسه أرسل في طلب زوجة له من بلاده، وكذلك تزوج السلطان المؤيد شيخ ابنة الأمير إبراهيم من بنت السلطان الظاهر فرج<sup>(٢)</sup>.

ينسب البعض شجرة الدر إلى الأتراك، ومنهم من قال إنها أرمنية<sup>(٣)</sup>، مع أنها شركسية<sup>(٤)</sup>، وسبب تلك العادة التي كانت في ذلك العصر فكان يذكر اسم الشخص باللقب أو ينسب على جماعة كان معهم أو إلى أستاذ كان له أو حتى إلى الأمكنة التي مر بها أو مكث فيها أو حتى إلى مذهبه أو عمله فيقال مثلاً: الطواشي صفى الدين جوهر التوازي الحبشي الخازنداري، ويقال الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله بن محمد الأدكوي ثم الفوي ثم يقال: الأمير الطواشي فيروز الرومي الجاركسي الساقى<sup>(٥)</sup>، واضح مما تقدم أن بعض الأشخاص لدى الكاتب الواحد يختلف ويتناقض أحياناً فما بالك بعشرات الكتب والكتاب واختلاف الأزمان والأهواء.

### ج. نظام الحكم:

يوجد مثل لدى الشراكسة يقول: (إذا كنتم اثنين فليأتكم أحدكما بالآخر، وذلك لكي لا يقع أي خلاف، وعلى نطاق الجماعة أو على نطاق أي مجلس ولو مجلس سمر أو حفلة رقص، ويعين الشراكسة زعيماً أو حاكماً مصغراً لتلك الحفلة، ويتقيد الآخرون بأوامره ويستأذنونهم في أي عمل يريدون القيام به، ضمن عادات وتقاليد تعرف بـ (أديغه خابزة) وينفذونها كقانون ودستور لهم<sup>(٦)</sup>.

١ - تاريخ الملك الظاهر ص ٢٠.

٢ - المطبخ السلطاني ص ٦٠.

٣ - العصر المماليكي في مصر والبلاد ص ١٧ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٩ الملك المظفر قطز ص ٦.

٤ - مصر والشراكسة ص ٥٠.

٥ - حوادث الدهور في مدى الأيام والسنين ج ١ ص ٨٣ - ١١٣ - ١١٤ - ١٤٨.

٦ - الوطن في أدب الشراكسة ص ٥٥.

على نطاق أكبر تكون المجالس العامة للقريبة ولأي أمر طارئ يعين شخص للقيادة سواء بالإجماع العلني عليه أو ضمناً، وإذا عدنا إلى أساطيرهم نجد تعداد المجالس فيها وأنواعها كما نجد تعداد الإله الذي يكون بمثابة القائد الأعلى لنوع من أنواع العمل فيسمى إله للحرب وإله للزراعة وإله للحيوانات وإله للحديد والتعدين وغيرها بالإضافة إلى وجود إله واحد للجميع كرب للأرباب.

لا بد من هذا التمهيد لتوضيح كيفية حكم الشراكسة منذ القدم مع العلم أن الشراكسة لم يصلوا في تاريخهم القريب المعروف بوضوح إلى درجة إنشاء دولة واحدة لكافة أنحاء بلادهم وأفطارهم، بل كان لكل جهة أمير وهذا الأمير يرتبط بأمير الأمراء الذي يجمع عليه بمجلس عام بحضور أعضاء من كل طرف وجماعة وكمثال تجد الأمير (بلوتوقه) حيث كان النظام عندهم نظام (الإمارات المتحدة) ويستعمل البعض عبارة الحكومات المتحدة، وهذه الإمارات كانت لها صفة خاصة لا بالجمهوريات المحصنة ولا بالإدارة المطلقة، فكل أمير يحكم إمارته لوحده وحسب ما تعارفوا عليه في عاداتهم وتقاليدهم وهؤلاء الأمراء يكونون خاضعين لأمير الأمراء أو الأمير الكبير، وهذا الأخير يتم انتخابه بشكل ديمقراطي<sup>(١)</sup>، وبالطبع حتى يصبح أي أمير حاكماً يتولى الرئاسة أو الإمارة يجب أن يتصف بصفات عديدة منها (أن يكون متصفاً بالعقل الراجح والفكر الثاقب، شجاعاً مقداماً لا يهاب الكوارث، متمسكاً بالتقاليد القومية، محافظاً عليها عاملاً على تنفيذها ورعايتها، فإذا توفرت هذه المزايا في الأمير المرغوب تنصيبه ينتخب بالإجماع رئيساً وحاكماً على القبيلة مدى الحياة وتسند إليه القيادة العامة في الحروب)<sup>(٢)</sup>.

يشارك الأمير في الأمور الهامة مجلس أعيان أو مجلس قومي أعلى هذا المجلس من أولى مهامه انتخاب الأمير الحاكم وإعلان الحروب ومحاكمة الأمراء (أي الوزراء) وهذا المجلس يكون عادة من العلماء والنبلاء والقادة ويكون أعضاء المجلس الأعلى بعدد الدوائر المتألّفة بحيث يكون لكل منطقة أو دائرة مندوب

١ - تاريخ الفوقاز ص ١٨٤.

٢ - تاريخ الفوقاز ص ١٨٥.

منتخب عنها لتمثيلها، وبالطبع في أول اجتماع للمجلس ينتخب رئيساً للمجلس وأعضاؤه يكونون تحت راية أمير الأمراء، وهؤلاء الأمراء وأعضاء المجلس لهم مكانة خاصة، فمثلاً إذا مر أي فارس من دار الإمارة أو الحكم يترجل عن فرسه. في حال مخاطبة الأمير يضاف إلى اسمه نعت يتصف بالتعظيم والتبجيل<sup>(١)</sup>.

يتضح إذاً (أن كل جهة تنتخب أميراً لها ومجموع الأمراء ينتخبون أميراً عاماً لهم، وإذا عدنا إلى عصر السلاطين سنجد أن الأمير كان على شاكلة ما ذكر، فكان هناك أمراء مختلفون عديدون يتبعهم أناس آخرون، هؤلاء تابعون لأmir معين، وفي حال انتخاب أمير الأمراء (السلطان) كما تسمى في عصر السلاطين يكون انتخابه من قبل مجلس الأمراء فيعين ويصبح هو الحاكم العام للبلاد في مصر والشام وما يتبعهما من البلدان، وباعتبارهم غربيين عن العنصر العربي فكان يجب ولو شكلياً أن يوافق الخليفة على ذلك التعيين، فالحكم كان ديمقراطياً بينهم ويتضح أن حكمهم كان حكم المجالس، كما كان الشراكسة في بلادهم القفقاس قديماً. (إن مفاهيم الديمقراطية ومجالس الشيوخ ومجالس الشباب ومبادئ الانتخاب والحرية مفاهيم باقية بوضوح شديد عند شعوب القفقاس الشمالي، وتفسر لنا النزعة الاستقلالية وشدة التمسك بالحرية الفردية، ولم يتمكن المؤرخون من فهم طبيعة هذه الشعوب مما جعلهم يصفونها بكثرة المنازعات على السلطة في دويلات المدن الديمقراطية، وحتى العصور الحديثة لدى السلاطين الشراكسة في مصر وكل ما في الأمر أنهم كانوا يأنفون من تولية ولي عهد صغير السن فيبقونه فترة احتراماً لذكرى والده ويعزلونه بعد ذلك ليولوا من بينهم من هو جدير بالرئاسة، ويلعب عامل السن دوراً في هذه المجتمعات بحسب عاداتهم وتقاليدهم المتوارثة ولو كانت الديمقراطية والتعلق الشديد بالحرية الشخصية من نقاط ضعفهم في تاريخهم السياسي)<sup>(٢)</sup>.

<sup>١</sup> - تاريخ الفوقاز ص ١٨٧ - ١٨٨ - ١٩١.

<sup>٢</sup> - الشركس في فجر التاريخ ص ٩٢ العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٠٥.

كان الشراكسة لا يمزجون (السياسة بالدين ولا يختلفون عن أهالي البلاد المفتوحة إلا بتعميم الإنسانية بسرعة فائقة وجعلها قانوناً مدنياً عاماً، وهكذا كانت حالة الشراكسة قبل التاريخ وبعده، ولأنهم قد اعتمدوا على القوة لنشر المدنية وفتح جميع البلاد بواسطة جيوشهم المنظمة ووضعوا لخطتهم القوانين الاجتماعية التي لا تزال أحكامها جارية إلى اليوم)<sup>(١)</sup>.

لنعد إلى عصر السلاطين حيث كان اختيارهم يتم من قبل الأمراء كما ذكرنا، وكان الخليفة فقط يوقع ويوافق على ما اختاروه بل السلطان أحياناً كان يعزل الخليفة أو يعاقبه، وهذا يعني أن سلطنة الخليفة كانت شكلية، ويعطى له منصب ولقب، ويعطى له راتب بالإضافة إلى المهام الشكلية والتكميلية فيخرج مع السلاطين في الحروب مثلاً، ويمكن القول عن الخليفة حاكم بدون سلطة<sup>(٢)</sup>، أي اسمية تماماً مثل ملكة بريطانيا حالياً أو رئيس الهند، ولتأكيد ذلك نذكر ما جاء في كتاب نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية (فيصف إحياء السلطان المولد النبوي، ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعوا، وما فعلوا في الحفل، ويبين عدا هذا كيف يجلس السلطان ليلاً وكيف يتقدم إلى كبار الدولة ينشد كل منهم شعراً في مدحه، وكيف يقابلهم السلطان، وقد ذكر أن الخليفة يعقوب المستمسك بالله خليفة مصر تقدم (وباس الأرض كفرض العين وعين الفرض) وأنشد:

إن الخلافة ثوب خصصت به      إذا لبست فلم يفضل ولم يميز  
ما أودع الله في أحداقنا بصرأ      إلا لنفرق بين الدر والخرز<sup>(٣)</sup>

إن توضيح كيفية الحكم في عصر السلاطين يحتاج أكثر من مجلد فنظام السلاطين فريد من نوعه يرتبط بأمور مختلفة، ولكن لا ضرر من توضيح الجوانب عما قيل عنهم ولنتذكر معاً مهما كان الحاكم منصفاً ستجد من يدعي ويقول انه

<sup>١</sup> - عاد وثمود ص ٥٩.

<sup>٢</sup> - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٨٣ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ١٧ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٩٢.

<sup>٣</sup> - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص ١٩٢.

غير منصف، وهذا ليس في عصر السلاطين بل في كافة الأزمان ما قبل ذلك العصر وبعده، وليس الأمر متعلقاً بعدالة الحاكم أو بصحة حكمه أو كيفية الحكم بل الخلاف غالباً يتعلق بالمال فحينما اجتمع ولادة الأمصار في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه في المدينة عنده تكلم والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز: (وقال يا أمير المؤمنين إنه ليس يرضي الناس عنك إلا ما أسخطهم عليك، فإن الناس إنما نعموا عليك لأجل هذا المال، فأعطهم إياه حتى يرضوا به عنك، ولا يشكوك أحد بعد ذلك). ولا يستغرب الأمر ففي زمن الرسول صلى الله عليه وسلم تجد بأنه نهض شخص ومد يده ممسكاً قميصه قائلاً له: لم تتصف حين وزعت الغنائم على الناس، فهل يعقل ذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم؟ هل يعاب على عثمان أن يكون غنياً، وهل يعاب على السلاطين غناهم وأن تكون لديهم الأموال مع التذكير بأن السلاطين وأمراءهم هم الذين كانوا يخوضون المعارك بأنفسهم مع أعداء الإسلام، ومعلوم حسب الشريعة الإسلامية للمقاتلين أربعة أخماس الغنائم. فطالما كان العدو من التتار أو الصليبيين يريدون القضاء على البلاد العربية المسلمة فهل كان يريد البعض أن يتوقفوا لكي لا يصبحوا أغنياء، وكان الله ينصرهم في معظم الحروب وتأتي الغنائم، ألا تجد في كتب التاريخ أن الأمراء والسلاطين بنوا المساجد والمدارس والمنشآت مثل السدود والأقنية والطرق، ويذكر التاريخ كيف يدفعون الأموال بل يفتحون أمكنة للمحتاجين، ولا ينكر الرخاء الذي عم في عصر السلاطين.

#### د- السلاطين الشراكسة:

ذكرت كيف كان الأمراء يجتمعون لاختيار احدهم، والأوفر حظاً يكون من ذوي الكفاءة والمقدرة، أو الأكثر سناً في بعض الأحيان<sup>(١)</sup>، وبعد الاتفاق على أحدهم سلطاناً لهم، وقد يرفض المنتخب المنصب كالأمير أزيك، وهو من أشهر الأمراء وأرفعهم مقاماً، وحلف بالطلاق ثلاثاً ألا يتسلطن، وإزاء الإصرار الحاسم

<sup>١</sup> - قيام دولة المماليك الثانية ص ١١٠.

سلطان الأمراء غيره<sup>(١)</sup>، وفي حال اتفاق الأمراء وقبل المنتخب وبرضا تتم البيعة له من قبل الأمراء ثم يبايعه باقي فئات الشعب ممثلين بالخليفة والقضاة وغيرهم.

كان السلطان المنتخب من الأمراء، لا يعين لفترة محددة من الزمن وإنما يبقى حاكماً طالما يقوم بواجبه خير قيام وهو نظام فريد لا هو بالجمهورية يحدد له فترة ولاية، ولا هو بالملكية بحيث يصبح بعده ولده مالِكاً، وفي حال انتقال السلطان إلى رحمة الله تعالى يعين آخر، أو في حال خلع السلطان لسبب ما أيضاً يعين آخر بنفس الطريقة، ولكن كما هي الحكومات الحالية كان خلال الفترة الانتقالية يعين آخر مؤقتاً وقد يكون ابنه وهذه العادة في حال وفاة السلطان وفي حال كون الابن صغيراً<sup>(٢)</sup>، يعين معه كفيل لتسيير الأمور بالشكل الصحيح. وفي حال خلع السلطان أيضاً يعين سلطان مؤقت وغالباً يكون ممن ليس له طموح في السلطنة، وأحياناً يعين هذا المؤقت من غير عنصر السلاطين - أقصد العنصر الشركسي - فيعين تتاري أو تركي أو رومي وذات مرة عين الخليفة العربي سلطاناً لفترة انتقالية. وقد يخضع السلطان في حال إقدامه على عمل مخالف حسب نظام حكمهم فقد كان الشركس مثلاً يعطون أهمية لكبير السن<sup>(٣)</sup>، وكان يعتبر مَخْلأً بنظامهم ومفهومهم وعاداتهم أن يترأسهم صغير السن، والأمر غير مستغرب لمن يعرف عاداتهم ونفسياتهم<sup>(٤)</sup>، فمثلاً إذا كان السلطان صغير السن فلا تسمح عاداتهم بالتكلم بحضور كبار السن وذلك حسب عاداتهم وتقاليدهم في احترام الأكبر سناً<sup>(٥)</sup>، وكذلك الأخ الأصغر لا يحق له التكلم بوجود الأخ الأكبر، ولا الدخول للمجالس العامة. وهذا كان دأبهم ليس في القديم ولا في عصر السلاطين فحسب بل

<sup>١</sup> - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص ٤٤ - ٤٥.

<sup>٢</sup> - نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج ١ ص ٢٧ العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٨ - ١٠٥ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ٩٢ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٥٣ مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص ١٨١ - ٣٩٩.

<sup>٣</sup> - مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص ٢٤٧.

<sup>٤</sup> - المماليك ص ٢٣٦.

<sup>٥</sup> - مصر والشراكسة ص ٨.

حتى في الوقت الحاضر وللتوضيح أذكر حديثاً ذكره صحفي عربي رافقه شيشاني في زيارة لجمهورية الشيشان بعد إعلان استقلالهم من طرف واحد وزار كبار المسؤولين فيها ومن جملتهم الرئيس الشيشاني الراحل جوهر دوداييف حيث كان الصحفي مع جمع آخر في صالة الطعام كان فيها ميرزا بيك دوداييف أخ الرئيس جوهر وحيث ذكر ملاحظته بعدم دخول الرئيس إلى القاعة مع وجود أخيه الأكبر (لو أن أخ الرئيس لم يغادر المكان لما تمكن الرئيس جوهر دوداييف من الجلوس على مائدة الطعام أو التحدث معنا إذ أن التقاليد الشيشانية في هذه الحالة تفرض على الرئيس أن يقف قرب الباب ليعخدم علينا فقط فهذه هي مهمات الأصغر سناً بوجود من هم أكبر سناً منهم)<sup>(١)</sup>.

إذا عدنا إلى عهد السلطان برقوق حينما (وصل والده أنس) (أنص) إلى مصر فقد أجلس في صدر المخيم، وقعد الأمير اقتمر عبد الغني النائب من جانب، والأمير أيدير الشمسي من جانب آخر، وجلس برقوق تحت أيدير وهو يوم ذاك مرشح للسلطنة، فانظر إلى تلك الآداب والقواعد السالفة. ولما استقر بهم الجلوس أخذ أنص يخاطب برقوقاً ولده باسمه من غير تحشم كما يخاطب الوالد ولده على قاعدة الجراكسة)<sup>(٢)</sup>.

يتضح لك سبب تغيير الابن في حال وفاة الأب السلطان أو في حال وضع سلطان مؤقت، ليس الأمر كما اعتقد أغلب الكتاب بأن السبب هو المنافسة على السلطنة، كما ذكرت فالسلطنة ليست وراثية<sup>(٣)</sup>، وهذا ما يؤكد أنه أغلب الكتاب، وأكدته الوقائع بالإضافة إلى أن السلطان يختار من قبل الأمراء وليس هو من يرشح نفسه ويراعى كبر السن<sup>(٤)</sup>، وغالباً حينما يعين البعض يطلب إعفاءه كما فعل

١ - مقالة تحت عنوان (الشيشان تهازل وقلق ص ٢٣ - ٢٥.

٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١١ ص ١٨٣ - ٢٢٥.

٣ - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص ٢٣٢ نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج ١ ص ٢٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٢٥٣ - ٣٥٥ مصر والنام في عصر الأيوبيين المماليك ص ٢٠٥ - ٢٤٧.

٤ - المماليك ص ٢٣٦.

بيبرس الجاشنكير<sup>(١)</sup>، وقايتباي والغوري وغيرهم<sup>(٢)</sup>، وقد يصر الأمراء على السلطان المنتخب.

سأذكر السلاطين بالشكل التالي لسهولة البحوث التالية المتعلقة بالحروب والبلدان التي حرروها وفتحوها وما بها من العمران وخاصة المساجد والمدارس ذات الجمالية والإبداع الفني والعمراني الرائع:

١ - شجرة الدر.

٢ - الظاهر بيبرس وابنه بركة خان بن بيبرس وسلامش بن بيبرس.

٣ - المنصور قلاوون وابنه خليل بن قلاوون ومحمد بن قلاوون للمرة الأولى والثانية.

٤ - المظفر بيبرس الجاشنكير.

٥ - أحفاد قلاوون وهم: أبو بكر بن محمد بن قلاوون، وكجك بن محمد بن قلاوون، وأحمد بن قلاوون، وإسماعيل بن محمد بن قلاوون، وشعبان بن محمد بن قلاوون، وحاجي بن محمد قلاوون للمرة الأولى والثانية، وصالح بن محمد بن قلاوون، وصالح الدين محمد بن سيف الدين حاجي، ثم شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون، ثم صلاح الدين بن حاجي بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون للمرة الأولى والثانية.

٦ - الظاهر برقوق للمرة الأولى والثانية وفرج (بلغاك) بن برقوق للمرة الأولى والثانية وعبد العزيز بن برقوق.

٧ - المؤيد المحمودي وابنه أحمد بن شيخ.

٨ - الظاهر ططر (تاتار) وابنه محمد بن ططر.

٩ - الأشرف برسباي (باسرياي) وابنه يوسف بن برسباي.

١٠ - الظاهر جقمق وابنه عثمان بن برقوق.

١١ - الأشرف إينال وابنه أحمد بن إينال.

<sup>١</sup> - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٨ ص ٢٣٤ - ٢٣٦.

<sup>٢</sup> - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٩٤.

- ١٢ - الظاهر بلباي بن قلطاي.  
١٣ - الأشرف قايتباي وابنه محمد بن قايتباي.  
١٤ - الظاهر قانصوه (قانصاو) الأول المحمودي.  
١٥ - الأشرف جنبلط.  
١٦ - العادل طومان باي (طمانباي).  
١٧ - الأشرف قانصوه الغوري.  
١٨ - الأشرف طومان باي (طمانباي).